

فَلْتَكُنْ الكِتَابَةُ بِالْبَارُودِ: حِوَارٌ مَعَ الرَّوَائِي الْعِرَاقِيِّ يُوْسُفِ أَبُو الْفَوْزِ



شريف الشافعي - القاهرة

عن موقع المنصة 03 مايو/ ايار 2022

تكتسب تجربة العراقي يوسف أبو الفوز ثراءها المضاعف من كونها تجربة حياة، ونضال سياسي وفكري واجتماعي وحقوقى، ومعاناة في السجن والمنفى، قبل أن تكون تجربة إبداعية خالصة في كتابة الرواية والقصة. ولعل فكرة "الكتابة" نفسها لديه، كما يظهر جلياً في سلسلة أعماله، تنبع من حالة انتماء، صريح وضمني، إلى "كثبية"، بالمعنى العسكري المباشر. ومن ثم، فإن القلم يجب شحنه عادة بالبارود قبل الحبر، حيث يمارس الأديب والمتقف العضوي أدواراً متعددة على الأرض الملتهبة بالأحداث، ولا يمكن أن تنسلخ الكتابة عن هذه الأدوار المتشابكة.

منذ كتاباته الأولى وبدايات تجربته، لم يتخلّ يوسف أبو الفوز، المولود في مدينة السماوة جنوب العراق في العام 1956 لعائلة عمّالية فقيرة، عن تلك الرؤية الواضحة، التي تمزج جماليات الأدب كهدف غائي بضرورات أخرى اجتماعية واقتصادية وسياسية، وقضايا إنسانية مصيرية، لا يمتلك المبدع ترف تخطيها بدعوى الاكتفاء بالمتعة والنصوص النقية، وإلا فإنه يعيش في فراغ، وينعزل عن مجتمعه وذاته في أن.

توازى اهتمامه المبكر بالكتابة ونشر قصصه في الصحف والدوريات العراقية، مع معارضته السياسية ورفضه الانضمام إلى حزب البعث، ما دفعه إلى الاختفاء لمدة عام خوفاً من الملاحقة، قبل أن يضطر إلى مغادرة العراق في 1979، إلى السعودية، ومنها إلى الكويت، حيث عمل في الصحافة الكويتية بأسماء مستعارة، قبل أن يلتحق بحركة "الكفاح المسلح" مع قوات الأنصار الشيوعيين في كردستان العراق في 1982 لمقاومة نظام صدام حسين. وجرّاء حملة الأنفال للإبادة الجماعية، التي قام بها النظام العراقي برئاسة صدام حسين ضد الأكراد في كردستان العراق في 1988، بدأت مرحلة أخرى من مراحل تشرد يوسف أبو الفوز بين المنافي والسجون، وهي كلها محطات شكلت روافد ومنابع لكتابات السردية.

في رحلة هروبه إلى أوروبا، أعتقل أبو الفوز في إستونيا في 1994، وقضى تسعة شهور في سجونها، إلى أن اختاره السجناء العراقيون (قرابة مئة سجين) ليمثلهم أمام السلطات الإستونية. وأسفرت هذه

الجهود الجماعية عن إطلاق سراحهم وقبولهم كلاجئين في فنلندا، بالاتفاق مع مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، ذلك بعد إصدارهم صحيفة احتجاجية، وتنظيمهم إضرابًا عن الطعام.

ومنذ العام 1995، حتى اللحظة الراهنة، ويوسف أبو الفوز يقيم ويعمل في فنلندا، ويستحضر صراعات عالمه الجديد في أعماله الأدبية، لكنه من جانب آخر يواصل مد أنشطته الحياتية والسياسية والإبداعية إلى العراق، الذي لم ينسه يوماً (لا يزال عضواً في نقابة الصحفيين بكرديستان العراق)، كما يمد أشرعته إلى العواصم العربية التي ينشر فيها أعماله المتتالية (صدرت أحدث رواياته بعنوان جريمة لم تكتبها أجاثا كريستي في القاهرة منذ أسابيع قليلة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الإبداع العربي).

تلك القرى.. تلك البنادق

لم تمنع الهجرة الطويلة يوسف أبو الفوز من أن يبقى كاتباً عربياً مهموماً بأزمات بلاده والشأن العربي الداخلي وأوضاع اللاجئين والمهاجرين العرب إلى أوروبا وغيرها من القضايا الجوهرية، بالطريقة التي أرادها منذ البداية (الكتابة بالبارود). كما أنه لم يفقد تواصله الجسدي مع العراق والعواصم العربية، بزيارات متكررة، أحدثها زيارته القاهرة في فبراير/شباط 2022، حيث أقيمت ندوة في المركز الدولي



للكتاب لمناقشة روايته جريمة لم تكتبها أجاثا كريستي، حيث التقته المنصة بعدها، في هذه المقابلة أو الفضفضة الحميمة، سعياً إلى استجلاء بورتريه متكامل لملامحه الإبداعية والإنسانية، عن قرب، ومن دون رتوش.

يتسع بروفايل يوسف أبو الفوز الخصب لمساحات لا منتهية من الإطلاقات المتعمقة، التي تتجلى من خلالها علاقة الأدب بالسياسة، المتجسدة بوضوح في الأدب العراقي المعاصر، حيث

انخرط الأدباء في كيانات وتنظيمات وتكتلات جماعية، إلى جانب دور الأدب الطبيعي في المقاومة بالكلمة. كما تتبدى معاناة الكتابة التي تنشد الحرية، في واقع عربي يسوده الخطاب السياسي الأحادي القمعي، وتتضح انعكاسات السجن والمنفى والاغتراب على الكتابة الإبداعية الراهنة، ويتكشف موقع كتابة أدباء المهجر الجدد بين الواقع والتخييل، خصوصاً في طرح قضايا حيوية ومصيرية مثل الصراع الحضاري واضطهاد العرب واللاجئين وتعرض المنفيين لضغوط من العنصريين والنازيين الجدد في أوروبا.

كما تحيل تجربة أبو الفوز الثرية إلى أبجديات الرواية العربية الجديدة وتقنياتها المستحدثة، وتسليحها بآليات تشويقية مثل البوليسية والاشتغال على الجريمة للوصول بالحالة الخاصة إلى الهم الإنساني المشترك، وكذلك تأثيرات الكتابة الجديدة بالنشر الإلكتروني والعصر الرقمي وهيمنة السوشيال ميديا، وأمور كثيرة متنوعة ذات صلة، مبعثها رسوخ تجربته وزخمها.

في مجموعتيه القصصيتين عراقيون (1985)، و تلك القرى.. تلك البنادق (2007)، يستحضر يوسف أبو الفوز أسرار تجربة قوات الأنصار الشيوعيين، والكفاح المسلح في كردستان العراق. وفي مجموعتيه

أنشودة الوطن والمنفى (1997) وطائر الدهشة (1999) يستفيض في سرد تداعيات المنفى وحالات اللجوء العراقي إلى الدول الغربية، فيما يسمى "أدب اللجوء".

وفي تضاريس الأيام في دفاتر نصير (2002) وشقائق النعمان (2003) يقدم مذكرات ونصوصًا وخواطر وشهادات حول تجربة الأنصار الشيوعيين، وشهداء الحزب الشيوعي العراقي. أما رواياته تحت سماء القطب (2010)، وجريمة لم تكتبها أجاتا كريستي (2022)، فيسهب فيهما في تقصي أحوال العراقيين والعرب في أوروبا، وتفصيل حياتهم، ومعاناتهم في ظل صراع الحضارات.

وعبر روايته مواسم الانتظار (2021) يتناول أبو الفوز جوانب من تاريخ الحياة السياسية والحزبية في العراق، فيما يتحرى في روايته كوابيس هلنسكي (2011) موجات التطرف في أوروبا، سواء المتصلة بالإسلام السياسي، والمتعلقة بالأحزاب والجماعات الأوروبية المتعصبة، من قبيل النازيين الجدد، وصولاً إلى الكوابيس التي يعانها الإنسان العراقي بصفة عامة في حياته اليومية، سواء ظل في وطنه، أو هاجر منه.

حول هذا التماهي بين الإبداعي والسياسي والاجتماعي، في حالة الأدب العراقي المعاصر على وجه الخصوص، وتعدد وظائف الأدب، وأدوار المثقف العضوي الفاعل، يرى يوسف أبو الفوز أن أحوال الأدب والسياسة تتشابك في معظم بلدان الشرق الأوسط، ومنها العراق، حيث "يعتبر الأدب عامل إزعاج دائم لرجال السياسة، بحكم كون الأدب بحاجة دائمة لفضاء واسع من الحرية للقدرة على التعبير عن رؤية خاصة ووجهات نظر مختلفة، غالبًا ما تتقاطع مع خطاب السياسي، الذي لا يريد من المثقف عمومًا سوى أن يكون أداة إعلامية تابعة له".

من هنا، وفق أبو الفوز، ينتظر أن يقوم الأدب، وبالتالي المثقف الحقيقي، وبالتحديد المثقف العضوي، المرتبط بهموم الناس وتطلعاتهم، بالكثير من العمل الجاد، لا يقتصر على تسليط الضوء على خراب الواقع المحيط بنا، وكشف هموم الإنسان المتطلع لحياة حرة كريمة، بل السعي لتغيير هذا الواقع نحو الأفضل، سواءً من خلال الأعمال الأدبية التي تنتصر للإنسان وطموحاته المشروعة، أو حتى الانخراط المباشر في العمل السياسي والاجتماعي الثقافي من خلال إطارات وكيانات، يكون ضمن مهامها، إيجاد آليات تردم الثغرات ما بين السياسي والمثقف، وتسعى إلى تحويل الثقافة إلى سلوك حياتي واعٍ.

"شخصيًا، ككاتب ذي تطلعات علمانية تنويرية، أعمل لأجل مجتمع متحضر مدني، مجتمع المؤسسات والقانون والعدالة الاجتماعية. أحاول في كتابتي تعرية كل ما هو معيق لحرية الإنسان، وأسعى إلى كسر (التابوهات) المتوارثة، وأجتهد لتقديم شخصية الإنسان الذي لا ينهزم رغم تحطمه، وأقدم صورة المرأة القوية، رغم كل معاناتها، والإنسان الكادح صاحب الكبرياء رغم ذل الفقر"، يقول أبو الفوز، مؤكداً إيمانه بقوة المستقبل، انطلاقاً من التجربة التاريخية الإنسانية، ويعقب "رغم معرفتي بأني لن أشهد هذا المستقبل، فهو بعيد إلى حد ما، لكنني أؤمن به وأعمل لأجله بكل تقاؤل، وأحاول الإسهام بخلق وعي جمعي للعمل من أجله، من أجل غد الإنسان المشرق".

أحضان المنفى وجرائمه

في أحدث رواياته جريمة لم تكتبها أجاتا كريستي، ينعكس يوسف أبو الفوز جراح المنفيين والمهاجرين العراقيين والعرب إلى أوروبا، مستعيداً مقولات الصراع الحضاري، وموازناً بين الأحداث والشخصيات الحقيقية والفضاءات الخيالية. ويرسم عبر صفحاتها صورة بانورامية للمشهد الحياتي في هلنسكي، وما ينطوي عليه من الظروف القاسية المحيطة بالمهاجرين العرب، الذين قد يرتكبون الجرائم أحياناً بفعل معاناتهم وفقدهم وصدمتهم الحضارية وعدم تكيفهم مع المجتمع الجديد.

أو ربما يكونون ضحايا أحياناً لجرائم وهمية يجري تليفها لهم بسبب جماعات الضغط والكرهية الغربية، التي قد تمارس عنصريتها ضدهم كذلك، وتسعى إلى طردهم، وهنا يدركون أنهم هربوا من سجون بلادهم وويلاتها إلى ظلم وظلمات خارج الحدود. ويتسع مفهوم الجريمة في الرواية من حالة قتل فتاة عراقية في المنفى في ظروف غامضة، ليشمل كل البشاعات غير المبررة التي تُمارس ضد الإنسانية.

حول سنوات المنفى الطويلة وانعكاسات تجربة الاغتراب في كتابات يوسف أبو الفوز، التي تجمع الحقيقي والمتخيل، شخوصاً وأحداثاً، يوضح الكاتب العراقي أن اللجوء إلى المنفى لم يكن خياراً سهلاً بالنسبة له، قائلاً "هو أمر أجبرت عليه شخصياً أمام تعسف نظام حزب البعث وشموليته وفاشيته. لكن المشكلة الأكبر أن المنفى، مع مرور السنين، صار عندي وطناً ثانياً. ورغم ظهور جذور جديدة، فإنها لم تتجح في إزاحة ومحو جذوري الأولى، التي تحدد هويتي الثابتة، كإنسان وكاتب عراقي. تعاملت مع موضوعة المنفى كوطنٍ ثانٍ وفر لي استقراراً نسيئاً، وفضاءات واسعة من الحرية، وأتاح لي الفرصة للاحتكاك بالآخر المختلف، ثقافة وحياة وقوانين، ما أسهم في توفير الفرصة لمراجعة تجاربي السابقة، وأيضاً متابعة المهوم الجديدة التي ظهرت في المنفى لي ولأبناء وطني."

ويسترجع أبو الفوز ما كتبه صديقه الشاعر الفنلندي ماركو كويغولا يوماً عن تجربته الأدبية في فنلندا بأن "يوسف أبو الفوز ككاتب يطير بجناحين؛ فنلندي وعراقي"، ويقول موضعاً "كان مصيباً جداً. إذ أتاحت لي فرصة متابعة هموم أبناء وطني، وعموم المهاجرين، في المنفى، فسعيْتُ لعكسها في أكثر من عمل روائي. ودائماً تبدأ صفحات الرواية عندي، من مكان ما في المنفى، وأجتهد لعكس ظروف هذا المنفى وطبيعته، ثم ينتقل القارئ مع شخوص الرواية، إلى وطنهم الأول، بالانكفاء على أهم أدوات الكاتب المنفي والمغترب، وأعني الذاكرة والحنين، في محاولة لاستعادة الوطن البعيد."

وبحكم كونه كاتباً واقعياً، يعتقد يوسف أبو الفوز أن الرواية شكل من أشكال الأعمال الأنثروبولوجية، أي أنها تهتم بالإنسان أساساً، فيلجأ في أعماله الروائية إلى بناء الشخصيات بدراسة من حوله من بشر، فيجمع أجزاء شخصياته ويلملمها بتأنٍ من حوله؛ من الناس الذين يعرفهم ويتعاش معهم، وبالاعتماد على خيال الكتاب، الذي يجعله الأساس في تجميع شظايا واقعية، تساعد في رسم شخصيات مبتكرة تشبه الجميع، ولا تشبه أحداً.

"أجتهد في رواياتي وقصصي المكتوبة عن المنفى، لعكس تأثيرات الثقافة الأخرى على الإنسان المهاجر واللاجئ، وإبراز همومه، أحلامه وطموحاته، خصوصاً الجيل الثاني، بالإضافة إلى موضوعات التلاقح الحضاري والهوية والجذور. أدرك بالتجربة أن المهاجر أو اللاجئ لا يقطع تذكرة سفر باتجاه واحد، فهو يظل مرتبطاً بجذوره ووطنه، وتبقى همومه الأولى متداخلة وعميقة، وإن عاشها تحت سماء أخرى وسط أجواء اجتماعية وثقافية أخرى"، يقول يوسف أبو الفوز.

السجن صدفة العراقي

لا يكاد يخلو عمل قصصي أو روائي ليوسف أبو الفوز من ذكر أو إحالة إلى تجربة السجن، الذي قد يكون ثمناً لجريمة، أو لنضال سياسي يجري التصدي له بالبطش والتنكيل. وعانى أبو الفوز من التعرض للسجن أكثر من مرة، الأمر الذي أثر في تشكيل تجربته الإبداعية وصياغة شخوصه الفنية.

"من الطريف، كوني خارج وطني العراق، أنني تعرضت مراراً للسجن والاحتجاز لفترات مختلفة، فقط لكوني عراقياً، لا أحمل أوراق سفر رسمية. عرفت الاحتجاز الطويل في إيران، والاعتقال لأسابيع في سوريا، والسجن تسع شهور في إستونيا. وفي كل التجارب التي مرت، كان واضحاً جداً لي أهمية امتلاك الإنسان لحرية، فهي التي تحدد كينونته، وأن جدران الزنزانة، بخاصة إذا كانت ظالمة، تسحق كرامة

الإنسان، فيتحول السجين إلى مجرد شيء يمكن التحكم به من قبل صاحب السلطة، يرسم أفعاله وفق أوامر السجان، ونظام السجن"، يقول يوسف أبو الفوز.

في تلك الأيام، برزت عنده أيضًا أهمية امتلاك الإنسان لحريته الداخلية، لمقاومة عسف السجان وجدران الزنزانة. كانت ترن في باله دومًا نصيحة يوسف سلمان يوسف، مؤسس الحزب الشيوعي العراقي (أعدم عام 1949)، لرفيقه الفنان رشاد حاتم، وكان سجينًا معه، يشكو من ثقل جدران السجن على روحه وفرشاته ولوحته، فقال له "ادفع الجدران بعيدًا عنك، وسترى الأفق البعيد". فالحرية، كفكرة، يمكن للكاتب أن يمتلكها حتى وإن كان بين جدران زنزانة. يمكن للسجان أن يقيد حركته الفيزيائية، لكنه لا يمكنه أن يقيد أفكار الكاتب وروحه. هكذا ظهرت أجمل قصائد المقاومة، التي كتبها العراقي مظفر النواب، وخسرو روزبه الإيراني، وآخرون.

هكذا، وجد أبو الفوز ذاته في العديد من أعماله يستعيد أجواء السجن، ليعكس توق الإنسان الدائم للحرية، وقبح سلب الإنسان حريته لمجرد أن له رأيًا آخر مختلفًا. ويقول "في وطننا العربي، يجد المثقف نفسه سجينًا في زنازين متراكبة ومتداخلة، وفق أحكام العادات والتقاليد والدين والسياسة، فينصب بعض الكتاب لنفسه بنفسه رقيبًا داخليًا، ويرسم خطوطًا حمراء يخشى تجاوزها. أما عن دور النشر العربية الرسمية، فإنها تلتزم بصرامة بقوانين التابوهات المعروفة؛ السياسة، الدين، الجنس. والدور غير الرسمية تعتمد على توجهها الفكري، ما يضطر الكاتب للالتفاف على الرقيب بوسائل مختلفة، تعبيرية أو بلاغية أو رمزية. ومحظوظ جدًا من يتعامل مع ناشر ذي فكر تنويري، يمنحه الحرية في التعبير عن آرائه بحرية، وهم للأسف قلة نادرة."

لعبة البناء

تبدو رؤية يوسف أبو الفوز للكتابة وتقنياتها، وأدبيات الرواية المعاصرة وانزياحاتها الجمالية والأسلوبية في عصر الصورة والاتصالات والرقمية والإنترنت والتواصل الاجتماعي، رؤية طليعية متجددة، على الرغم من وجود ثوابت لديه تتعلق بوظيفية الإبداع والتزامه الاجتماعي. وفي أعماله، هناك دائمًا استشراف للتيارات والأبجديات المبتكرة في المعالجة والتناول والصياغة، كما أنه يحرص على أن تكون أعماله، خصوصًا الروايات، بمثابة حياة كاملة موازية، بكل ملابساتها وتعقيداتها وصراعاتها ودواثرها المستغلقة.

يشير الكاتب العراقي إلى أن الرواية تملك فضاءً رحبًا لقول أشياء كثيرة، فهي توفر الفرصة للكاتب لإبراز قدراته في السرد وبناء الشخصيات. "شخصيًا، أنا مغرم بلعبة بناء حبكة متينة تربط الأحداث والشخصيات وفق منطق مبرر، وأستمتع جدًا بهذا عند كتابة الرواية، بشكل لا يتوفر عند كتابة قصة أو قصيدة. في بداياتي المبكرة، كنت مشتتًا، لا أعرف ما الذي أريد. كتبت كل الأجناس الأدبية، من شعر وقصة ومسرحية ومقالات. وبعد وصولي فنلندا، مطلع عام 1995، توفر لي استقرار نسبي لخوض مغامرة إنجاز كتابة أول عمل روائي تحت سماء القطب، ثم توالى الأعمال الأخرى، التي كان فيها مستقبل العراق همي الأول"، يقول أبو الفوز.

ويوضح أن الرواية تمنحه المجال أيضًا لخصوص مغامرات تكنيكية، كذلك القالب البوليسي التشويقي في روايته الأحدث جريمة لم تكتبها أجاتا كريستي، متسائلًا "هل هي الرغبة في تقديم شيء جديد غير مسبق؟"، ويجيب "ربما. لكن باعتقادي أن محاولة إشراك القارئ في العمل الروائي، التي طالما كانت أحد هواجسي أثناء الكتابة، كانت أحد الدوافع المهمة لاختيار هذا القالب. أيضًا التفكير بعدم ترك الملل يصيب القارئ أثناء قراءة العمل الروائي، كان دافعًا آخر.

كنت أريد أن يتلهم القارئ لمعرفة النتائج. بالإضافة إلى أن فكرة الرواية، بأن ثمة جرائم عديدة ترتكب بحق الإنسان، تتجاوز مفهوم الجريمة المباشرة في القتل وإفناء الجسد، كانت أيضاً دافعاً مهماً لجعل القارئ يتعرف في النهاية أن هناك جرائم لها أشكال مختلفة، كجريمة سرقة الوطن والكرامة الإنسانية، وجريمة التمييز والعنصرية، وجريمة الطائفية الدينية، وجريمة قمع الحريات والأراء، وغيرها".

ويعتبر يوسف أبو الفوز نفسه محظوظاً بترجمة بعض أعماله الأدبية إلى الفنلندية والكردية، لأن الترجمة ضمان لوصل الرسالة إلى لغات أخرى، وهذا أحد أهم أحلام أي كاتب. ويرى أن نشر رواياته بالفنلندية له دور في ترسيخ "أدب اللجوء"، الذي يركز على قضايا الهجرة واللجوء في العالم الغربي.

ويتصور الكاتب العراقي أن الرواية العربية الجديدة قد تلاقحت مع مستجدات الحياة وتطوراتها، من حيث المضمون والتقنية واللغة، ومن أبرز المؤثرات على الرواية الثورة الاتصالية والمعلوماتية والإنترنت والسوشيال ميديا، كما صار للنشر الإلكتروني شأن كبير، ويقول "نشرتُ بعض قصصي القصيرة على مواقع الإنترنت، لكنني ما زلت أميل إلى اقتناء الكتاب الورقي، وبالتالي أفضل أن يطلع القراء على أعمالي ورقياً. ما زلت أشعر بأن ملمس الورق ورائحته يولدان تفاعلاً خاصاً بين القارئ والنص ضمن طقوس مبدئية، بينما الشاشة الإلكترونية تفقد القارئ هذا الإحساس".

ويرى أبو الفوز أن النشر الإلكتروني قد يكون حلاً للفاك من قسوة الرقابة الرسمية، ووضع حد لسوء العلاقة بين المؤلفين وعموم الناشرين المستغلين والمجحفين. ويقول في ختام حديثه مع المنصة "أعتقد أننا في بلادنا العربية بحاجة إلى أن نلحق بركب الحضارة، بوجود مكاتب إلكترونية ومنصات تسويق كتب تنظم وفق معايير دولية خاصة بالنشر، فالمستقبل يشير إلى أن سوق النشر الإلكتروني سيكون رائجاً".

The screenshot shows the website 'almanassa.com' with a navigation bar at the top. The main content area features a profile for 'يوسف أبو الفوز' (Youssef Abu Al-Fawz). The profile includes a photo of the author, a bio in Arabic, and a list of his works. The bio states: 'كاتب جريدة العراق يوسف أبو الفوز، تراجم الصحافة من كونه جريدة حياة، ونشاط سياسي وفكري واجتماعي، وعطوف، ومعتاداً في السجن والسفلى، قبل أن تكون'. The list of works includes 'مَلْتُكُن الكتابة بالبارود: حوار مع الروائي العراقي يوسف أبو الفوز'. The website also has a sidebar with various icons and a search bar.